هنرى روبير

عضو الأكاديمية الفرنسية ونقيب المحامين

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

إلى المحاماة ، فى شخص المحامى الأول ،
والنقيب الأول ، ابراهيم الهلباوى بك

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

ولكن ما الذى يقوله هنرى روبير فى تلك القضايا التى سلخ المحقق فى تحقيقها عاماً كاملاً ، أو التى اسودت فيها آلاف الصحف ؟ للجواب على ذلك نقول إن هنرى روبير كان يجيد عدم الكلام بقدر ما كان يجيد الكلام ، فهو يعمد أولاً إلى المسألة التى تحكم القضية — إذا صح هذا التعبير فى لغتنا العربية — فيظهرها على طريقته بقوة وبسرعة وإيجاز ، ثم يسقط من كلامه أكثر ما فى القضية من حواش تنأى به عن الجوهر ؛ فهو يدرك كل الادراك أن الخير للمحامى ليس عرض كل ما فى الأضبارة ، بل الفن الحقيق هو ترك ما يجب أن يترك فيها ؛ وقديماً علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوى تماماً فن الكلام ... ولذلك كنت تجده مسرعا ، ممتعاً ، مقنعاً ؛ كل ذلك فى وقت واحد

كان يقول إنه درس « لاشو » دراسة عميقة ؛ لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه ، فمرافعات روبير كانت مرافعات موضوعية مجردة ، لا تتخللها الجلجلة ولا الصوت الداوى ، ولا الصور التاريخية ، ولا العبارات البيانية الخلابة التى يتشابه فيها لاشو مع أستاذ ذلك العصر « فكتور هوجو » . والحق أن تلاميذ لاشو لم يكن متهم نقيبنا الذى نتحدث عنه ، بل إن لاشو قد خلف من بعده باربو نابغة الفن التقليدى فى الدفاع ، ولابورى ، المهيب الذى يُرعب بقدر مايستطيع الاقناع ؛ أما هنرى روبير فلم يكن يهمه رسم الصور ، ولا طلاء اللفظ ، ولا طلاوة الأسلوب ، ولا تفخيم المعانى ؛ فاذا جاءت صورة من الصور أو حكمة من الحكم فى معرض الدفاع وجدتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال ، ووجدتها من لباب القضية لا مترددة بين الحواشى لتثير الاعجاب

رحمه الله ! ألا فليقل لنا إن كان حقاً قد تتلمذ لأستاذ القرن الماضى — بعد بريه — هل هو كان يرى أن يقول للمحلفين تلك الكلمة المسرحية أو الخطابية التى قالها لاشو فى سنة ١٨٥٥ وهو يترافع عن روداف المتهم بدس السم إلى عشيقته « ميمى » : « ها إن السماء تدوى لكأنها تكاد تنقض ؛ إنكم تسمعون هزيم الرعد وعصف العاصفة ! ... إن السماء تزجر سخطاً على ما على الأرض من اعتات ... إنها تحتج معى على تلك الاجراءات !! ». أو تلك الكلمة الهائلة التى صوبها إلى القضاة فى مرافعته ضد الجنرال « تروش » بعد حرب السبعين ، وكان تروش قد تهاون فى قضية الأمبراطور ، وكان الأمبراطور قد خُلع ، وكان الأمبراطور صديقاً شخصياً للاشو ، قال : « ... إنكم ستحكمون فى قضية الجنرال تروش ... ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم !.. وسيقرأ التاريخ كل مادار فى هذه الجلسات .. فحذار أن تضحوا كل شىء مرة واحدة .. فيقول بنو الأجيال المقبلة : إن كل شىء فى هذه الأمة قد ضاع « حتى العدالة نفسها ! » لم يكن روبير ينحو ذلك النحو البلاغى فى الدفاع ، لأن وظيفة المحامى عنده كما قال : « أن يُقنع لا أن يلمع » ، ولأن الدنيا تغيرت ، والمحاكم ضاقت ، وصدور القضاة والحضارة نفسها أصبحت معجلة كأنها تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا ...

إنما تلاميذ لاشو ولداته هم أولئك الذين يقولون مثلما قال باربو عن دلبس : « ... ذلك الانسان الذى أضاف بعض الـ « رتوش » إلى صورة الخليقة كما أبدعتها يد الخالق ... » أو مثل فكتور هوجو وهو يترافع عن ولده شارل ضد عقوبة الأعدام « .. هذه العقوبة التى إذا وقعت على مجرم جعلته يشك فى وجود الانسانية ، فاذا وقعت على برىء جعلته يشك فى وجود الله !.. » أو مثل فكتور هوجو أيضاً وهو يترافع فى هذه القضية ، وإذا شئت فقل مثل النمر — الأب النمر كما سموه بعد الحرب الكبرى — أعنى كليمنصو عند ما ترافع عن أميل زولا عقب لابورى ، فنقل عن هوجو تلك الاشارة البديعة إلى تمثال المسيح ، وكان إلى ذلك الوقت يوضع خلف هيئة المحكمة فى الجلسات وقال : « انظروا وراءكم ، فهذه أكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة ! ! ... ... وكانت قضية أميل زولا تدور حول إعادة

النظر فى قضية دريفوس ؛ أو الهلباوى مثلاً فى قضية نزاهة الحكم ، وبتلك الوثبة الذهنية البارعة ، بل تلك الأعجوبة الرائعة الخالدة ، عند ما رد حفنى بك محمود أحد المستشارين لشبهة عرضت له فرفض الرد وأخذ الدفاع عن الخصم يعيِّر حفنى بك بأن رده رفض وبأنه يتشكك حتى فى القضاة ، ويتهم حتى رجال العدل ، قال هلباوى بك « . . . فلما عرضت له الشبهة فى قاضيه لم ينخلع فؤاده فَرَقاً ، بل أقدم على أن يطلب الحقيقة عارية والعدالة مجردة ، ليطمئن قلبه ؛ وقديماً ، وفى سبيل الاطمئنان قال موسى : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) . .

فالاطمئنان الذى نشده موسى وظفر به ، هو الاطمئنان الذى نشده حفنى وظفر به ! والذى حصل من خفى حصل من إنسان أسمى منه ألف مرة ، وبالنسبة لمن ؟ بالنسبة لمن هو أسمى من سعادة المستشار لا ألف مرة ، ولا مليون مرة ، ولكن بمقدار الفرق ما بين الانسان وخالق الانسان . . !! »

لا تجد لذلك التصور وأشباهه نظائر عند هنرى روبير ، لكنك تجد له خواطر ممتعة تستحيل عند تلاوتها إلى حجج موضوعية فى القضية المطروحة . ومثل ذلك ما نقلناه من قبل فى ختام مرافعته عن بوبوروش ؛ ومثل ذلك أيضاً ما جاء فى مرافعته عن الدكتور لابورت فاستمع إليه يوجه نظر القضاة إلى الأطباء : « ... انظروا إلى تلك الغرفات الفساح فى المصحات والمستشفيات حيث الهواء مشبع بسموم الدفتريا وجراثيم الطاعون ، وانظروا إلى أولئك الرائحين الغادين فى تلك الغرف أمام مرضى ينفثون الموت الزؤام من الشهقات والزفرات ؛ هل علمتم على واحد منهم أنه أجفل أو أنه ارتعد ؟ هل تردد واحد منهم عن القيام بكل ما يفرضه عليه الواجب ؟ ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والكوليرا ، واسألوا كم من هؤلاء الفرسان قد سقط فى ساح الشرف ! انظروا إلى هذه الطائفة وقولوا هل هى الطائفة المتمردة على القانون والتى يجب أن يضرب على أيديها ضربات البطش والانتقام ! . . لا . لا . . إنكم ستجدون هؤلاء البنين البررة للعلم وللفن وللانسانية قد وهبوا نفوسهم للعلم وللفن وللموت فى سبيلهما ؛ فهم تارة يصرعون الموت وتارة يصرعهم ، لكنهم يستحقون الاعجاب فى كل حال !! . . »

وكانت له وثبات فى الارتجال يتناقلها الكافة ؛ فمثل ذلك رده على النقيب دربيه الذى جاء فى صدر هذا البحث ، ومثله ما رواه « جولندن » فى (أشهر قضايا سنة ١٩٣٢) ولقد كان توريز المحامى الأشهر يدافع بجلسة ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٢ أمام استئناف الجنح عن موكله (فرمون) ضد (تاكوشيا) موكل هنرى روبير ، وكانت التهمة نصباً موجهاً ضد فرمون ، وكان هنرى روبير عامى المدعى المدنى ، وكانت نظرية توريز أن تاكوشيا سبق أن نصب على فرمون فجاء فرمون وأصلح ما أفسده عليه تاكوشيا ، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية تخلب الألباب قال : « ... لقد كانت رواية : أما الفصل الاول فتاكوشيا يضرب فرمون ، والفصل الثانى فرمون يضرب تاكوشيا . . . » وبينما هو يسترسل نادى هنرى روبير بصوت ضخم : « . . . الفصل الثالث : المحكمة تضرب فرمون !! . . »

كان زعيم الارتجاليين كما قلنا ، فما هو الارتجال إذن ؟ أما ارتجال الفكرة فمجازفة بحقوق الناس ، ووصمة للمحاماة ، واستهتار بالقضاة ؛ وأما ارتجال الألفاظ فذلك شىء آخر ؛ والمحامى الذى يرتجل الكلام هو الذى يملك أعنة البلاغة ، أو هو الذى حضر مرافعته مرات ومرات ، أو هو الذى تمرن على مواجهة الاحداث ومجابهة ما يفاجئ ؛ وإذن فهو لا يرتجل وإنما هو يستخرج ما فى مواهبه من كنوز غائرة تظهرها الحاجة ، فهذا تحضير غير مباشر ، وهذا هو بالطبع ما عناه شارل شنى فى محاضرته لفتيات الجامعة فى سنة ١٩١١ ، إذ حدثهن عن حياته الأولى فى المحاماة قال : « ... وكنا جميعاً نساهم بنصيب ضخم فى تلك الأكذوبة الشائعة وهى أننا نرتجل عفو البديهة كلاماً سهرنا فى تحضيره طول الليل وأثناء النهار . . !! » وفى أواخر القرن الماضى أشار محام — كان عضواً فى مجلس النواب — إلى أن القضاة سيسمعون من (باربو) مرافعة أصلها مكتوب ، فصرخ باربو بصوته الداوى : « نعم إن احترامى لهذه الساحة يضطرنى لتحضير ما أقول ، لكن الذين لايحضرون كلامهم ويعاوزونه بالتناقض يجدون صدوراً رحبة فى ساحة أخرى . . » وكانت الساحة الأخرى طبعاً مجلس النواب

كان هنرى روبير يوصى المحامين دائماً بالاطلاع والاستعداد ؛ كان يوصى بالقراءة دائماً وبالكتابة دائماً ؛ كان يقول مثلما قيل من قبله : إن سر النجاح هو « أولاً : العمل ، وثانياً : العمل ، وثالثاً : العمل » ولقد يكون المحامى موهوباً وكله كفايات ، فاذا لم يجدد نفسه ويزوّدها بالمعلومات وجد نفسه بعد سنوات أجوف فارغاً يردد اليوم ما يردده غداً . حدثنا النقيب بايان عن شنى وبارتو أنهما قضيا نحو العشرين عاماً فى زاوية من زوايا المحاماة لا يعرفها اشعاع النور ؛ وفى تلك الأثناء كانا ، وخاصةً بارتو يتسلحان بدراسة عميقة للعلوم والتاريخ ؛ حتى إذا انقضى ثلث قرن كان بارتو يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هى آية الآيات فى المحاماة بل فى الأدب الكلاسيك ؛ ولكن روبير قد عرف الشهرة فى مستهل حياته فهو لم يكن ينعم — أو يشقى — بما سماه الفراغ الاجبارى للمحامين ، ولكنه مع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحاه الفراغ والعلم . وإذا رجعت إلى مؤلفاته وخصوصاً قضايا التاريخ الكبرى ، تلك القضايا التى تعتبر القضية الواحدة منها دنيا كاملةً فى قرن كامل ، عندئذ يتضح لك مبلغ ما أخذ به روبير نفسه من نصيحته للمحامين

إلى هذه الكفايات العظمى كان يضيف كفاءةً خاصةً هى الخلق العظيم : هى التواضع . وقدماً قال « لابرويير » (إن التواضع مع الكفاءة ، كالظلال مع الصورة ، تظهرها وتوضحها وتجليها)

هكذا كان رجلنا مع رجال القضاء ومع الزملاء

هو قد سلخ قرابة نصف قرن يترافع أمام القضاة والنواب ، ومع ذلك لم نسمع له بحادث واحد كلابورى الذى أسلفنا عنه المقال ، أو كشيفيانى حتى قُدّم للمحاكمة وأوقف مدةً لم تكد تنقضى حتى صار وزيراً للحقانية !! ثم صار رئيساً للوزراء ؛ أو كأميل أوليفيه ، أو كأسلوب « بريه » عندما ترافع فى قضية الثلاثة عشر فقال للنائب العام : « . . لا لست حسن النية فى هذا الذى تقول ؛ إن القوانين لا تطبق فى هذه الأيام ولكنها تفسر دائماً بما لا تحتمله ؛ إن النصوص تُرهق كما يُرهق بها الرجال . ! » ولا كأسلوب ڤولتير عندما قال عن قضاة كالا : « . . لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة ! » ذلك لأن هنرى روبير كان يعرف أن جلال المحاماة من جلال القضاء ، وأن شخصية القاضى جزء من معنى القضاء لا ينفصلان . أما مع الزملاء فكان خير الزملاء ، عطفاً وأدباً وحسن وفاء . إليك مؤلفاته جميعاً ، كلها ذكريات حلوة عن الزملاء والأساتذة . هذه أعذب العبارات يكتبها عن أستاذه دربيه ؛ وهذه أمداح تترى للنقيب مارتيني ، وتقدير لا حد له للخالدين بوانكاريه وبارتو ، ولدبوى وملران ولبريان ذى الصوت العذب عندما يترافع ، وهذا إعجاب لا حد له بلابورى ، وحب لشارل شنى ، وإكبار لبارتو وروسو الخ . هذا الثبت الحافل من الرجال الذين تتردد أسماؤهم فى مؤلفاته . حتى إذا راودته المنية عن نفسه استمهلها ليكتب سطوراً لم تحل الوفاة بينها وبين الناس ليملأها مدحاً للقضاة ولرجال المحاماة فى الأمس الدابر ، وللمحاماة نفسها ، تلك الآلهة التى طالما قدمها ، تلك الغانية التى طالما عبدها وأخلص لها الحب والعبادة بل التى ملأ الوجود الانسانى بكلام عنها يُشبه الألحان

* * *

وبعدُ : فما هى المحاماة ؟ « المحاماة أسمى مهنة فى الدنيا » كما قال ڤولتير وكما قال أيضاً « كم كنت أرجو أن أكون محامياً » بل هى كما قال ماكس باتو « إن المحامى ملك » ؛ ليست هذه العبارات لوحات أدبية معلقة ؛ لكنها حقائق قائمة منتزعة من صميم الواقع ؛ فانظر إلى المحامى وهو يترافع ؛ لا إلى (بريه) وهو يترافع عن ملك مستقيل ضد ملك قائم ، وعن ملك مخلوع ضد ملك منصب ، ولا إلى ماليرب وزملائه وهم « يحملون إلى الكونڤانسيون الحقيقة ورأسهم » دفاعاً عن لويس السادس عشر ، ولا إلى الهلباوى وهو يترافع فى آخر القرن الماضى عن البرنس سيف الدين ضد ملك ، وفى ١٩٣٣ عن البرنس محمد على ضد من ؟ أو فى سنة ١٩١٤ عن خيرى باشا ومحرم باشا ووراءهما من كان وراءهما ؛ ما إلى هؤلاء قصدت ولكن إلى المحامى الصغير — أعنى الشاب ، فليس فى المحاماة صغير وكبير ، بل فيها شاب ومكتهل — إلى المحامى الناشئ وهو يقف أمام المنصة ، فى محكمة الجنح أو أمام القاضى الجزئى ؛ هو دا يدلى بمرافعته بين الاحترام السام دائماً أو الاعجاب التام فى بعض الأحوال ، كلمات متزنة ، وعبارات واضحة كلها إخلاص ؛ مسموع الصوت مسموع الكلام ، لكأنك به فى ردائه الأسود ، الكاهن الجليل فى ساحة المعبد ؛ الأعناق مشرئبة إليه ؛ والآمال معقودة عليه ؛ فى يده مستقبل

أسرة أو ثروة فقير أو كرامة رجل أو عرض غانية ؛ ولقد يكون المحامى فى سبيل الدفاع عن موكليه قد ضحى ماضحى ، أضعاف أضعاف ما كسب ، وهو قد يكون تقدم الى الدفاع كما كان يتقدم أسلافنا الأولون ، بدافع النجدة والمروءة وفى سبيل الشرف لا فى مقابل المال ؛ هو ذا يقف ببسالة أمام الطغيان ، طغيان الأفراد أو طغيان الطبقات أو طغيان الأمة أو طغيان الحكومة ذاتها ..

— إنك تكاد تحسب عندئذ أن المروءة والبسالة قد اتخذتا شكل رجل يتكلم ، حتى إذا انتهى من مرافعته أملى التاريخ إملاءة بسيطة ليسمع كلمة القضاء أو كلمة القدر

انظر الى المحامى فى تلك الصورة المصغرة التى رسمناها ، وقل لنفسك مع ماكس باتو « إن المحامى ملك »

ولكن — أيها الاخوان المحامون — إذا كان حقاً أن ليست هناك مهن وضيعة ، وانما هناك أشخاص وضيعون فان ثمة حقيقة أخرى هى أنه ليس هناك مهن رفيعة ، وانما هناك رجال يرفعون من شأن المهنة . فاعملوا إذن على رفع مستوى المحاماة

— دائماً باستمرار : اعلموا أن الحياة المادية ليست هى المطمح السامى لمن لبس هذا الرداء الأسود ، بل إن هذا الرداء كما قال الهلباوى فى مرافعته عن الوردانى إنما يذكرنا بأننا قسيسون فى معبد العدالة نشاطر الناس لواعجهم وأشجانهم ؛ وكلما سمت المهنة سما بها بنوها عن الابتذال ؛ واعلموا أن نصف الوزراء فى الحياة الديموقراطية لا يعيشون بعد الخدمة إلا عيشة الكفاف . اعلموا أن المحاماة رسالة وليست تجارة ؛ وأن السعيد من استطاع أن يفهمها على غير أسس المال ؛ هاتوا صحائف التاريخ تشهدوا الثروات تتدفق على المحامى دائماً بعد أن يكون قد قام بواجبه فى سبيل الشرف أو فى سبيل الصالح العام ؛ تشهدوا المال يلاحق

— المحامى بعد أن يكون قد أدى رسالته فى خدمة المظلومين أو فى مدافعة الطغاة ؛ تشهدوا المحامى العظيم لايسعى الى المال وانما يسعى الى الشرف ، وكلما أعرض عن جمع المال انحدر اليه المال من كل ناحية . فالسعيد منكم من استطاع أن يفهم المحاماة على أنها مهمة ومهنة ؛ فاملأوا نفوسكم بالقناعة ، واملأوا أذهانكم بالعلم ، واملأوا فراغكم — الاجبارى أو الاختيارى — بالدرس وبالتحصيل وبالسعى المطرد نحو الكمال

وأنتم أيها المحامون الشبان : اسمعوا ! إن المحاماة فى مصر لم تصل الى أزهى عصورها بعد ؛ فأنتم إذن أملها المرموق بالعناية . اكتبوا دائماً ، واقرأوا دائماً ، وتعلموا حسن الأداء — فالمحاماة فى الحقيقة ليست إلا حسن أداء — واذكروا أن الحياة الديمقراطية قد ذللت لكم كل شعاب المجد ، وفتحت لكم الأبواب على مصاريعها ، فأدوا رسالتكم على خير وجوهها ، وكونوا دائماً شجعاناً ؛ وأضيفوا الى مبادئكم أن خير ما علمنا أساتذتنا هو أن احترام المحاماة من احترام القضاء ، وأن خير ما يكسب به الدعوى هو سلامة الأسلوب ونزاهة الغاية

اذكروا أن رئيس محكمة النقض السابق كان رئيساً لنقابتكم ، وأن رئيس نقابتكم السابق هو الرئيس الثانى فى الدولة بعد رئيس الوزارة ، واذكروا أن رئيس الوزارة اليوم بل صاحب الرياسات جميعاً ، كان وما يزال محامياً منكم . واعلموا أخيراً أن هؤلاء الذين شاركوكم كزملاء لا كرؤساء سيعود اليكم منهم من يعودون ليتشرفوا بحمل ذلك الرداء الأسود الذى يساوى كلمة الدفاع ، ذلك الرداء الذى كان يحمله بوانكاريه وملران بين رياسة الجمهورية ورياسة الوزارة مثلما كان يصنع ڤيڤيانى ووالدك روسو ومثلما يصنع عبد العزيز فهمى ومكرم عبيد

كم كنت أود لو نقلت إليكم تلكم الخطبة الخالدة التى ألقاها المستشار «داچوسو» من محوماثتى عام فى المحامين والمحاماة ، ولكن المقام ضاق فاليكم منها تلكم الخاتمة :—

« . . حسبكم جزاء على آلامكم العظمى التى تسدونها الى الناس هذه العظمة وذلكم الجلال ، وألا تكونوا مدينين بالعظمة وبالجلال إلا الى أنفسكم . حسبكم أن يتخذ منكم الناس مثلما اتخذوا من أسلافكم من القادة والهداة والرسل ، وأن ترتفعوا الى تلكم المكانة العليا فوق الكافة فتتولوا صرف المنازعات وفض الخصومات ، تتولوا القضاء الفعلى بين الناس كما يتولاه القضاة الموظفون ولكن بما لكم من سمو الغاية ونزاهة القصد ونصيب ضخم من الاحترام العام وبما لكم من نفوذ الكلمة وبلاغة التأثير وجلال السيادة . . . . فهل أنتم إذن ستكونون لأنفسكم أداة تقدم لا عوامل تنفتل بكم الى الوراء ؟ . . هل ستكون هذه المحاماة التى طالما عملت لمجد الأمة ، وكم ستعمل فى سبيلها ؟ هل ستكون عند رجائنا فيها فتحتفظ لنفسها بمنزلتها الرفيعة العليا بين المهن ، بالفقه وبالبيان ولكن بالعدل والنزاهة أيضاً ؟ . . »